معركة "الجزائر"(*)

لجاك دوكسن

ترجمة الأستاذ أحمد شقرون

---

*- Jacques Duquesne, "La bataille d Alger", Pour comprendre la guerre d Algérie, .Perrin,2001 PP.69-78.

لكم التفويض المطلق"، ذلك ما قاله باختصار، يوم 7 جانفي 1947 م، الوزير الإشتراكي روبار لاكوست (Robert Lacoste) للجنـــرال ماســـو). (Massu)تفويض مطلق لتخليص مدينة الجزائر من جبهة التحرير الـــوطني "ج-ت-و" (FLN)، هذه الأخيرة التي قررت وأعلنت عن إضراب ليوم 28 من هذا الشهر.

أغلقت كل المحلات، ولا مسلم واحد يشتغل، إنه الشلل. لقد أختير هذا التاريخ بدقة : عشية انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة.

إن الأمر، حسب عبان رمضان، منظر العملية (والذي ســيدفع ثمنـــا باهضا عن إخفاقه، كان يستهدف جذب انتباه الرأي الدولي حـــول تضـــامن الشعب الجزائري المطلق مع جبهة التحرير الوطني، وكذا البرهنة على أن هـــذه الأخيرة تتوفر على وسائل عمل أخرى غير الإرهاب*.

لقد أحدث هذا الإعلان الذعر في أوساط السلطات الفرنســية الـــتي تيقنت من نجاح الإضراب، لأن السكان ســيعملون بالتعليمـــات خـــــوفا أو اقتناعا. فكان لا بد من رد فعل فوري. وقد تكون الشرطة عاجزة عن ذلـــك. فلا بد إذن من نشر المظليين في المدينة."نحن في حاجة، يقول إيـــف كوريـــار (Yves Courrière) ، إلى رجل ثقة، فعال، ولسنا في حاجة إلى رجـــل سياســـة، رجل متردد، بل في حاجة إلى رجل يمكن أن نقول له "لا بد من الإنتصـــــار بكل السبل وبسرعة".

* يقصد بالإرهاب في النص الأصلي العمل الفدائي الذي كان يشنه الفدائيون على الوجود الإستعماري الفرنسي (المترجم)

عشية معركة الجزائر:" لا بد من إنتهاج كل السبل، لا بد من سفك الدماء، ها هي كل صلاحيات الشرطة، نحن نحميكم".[1]

لقد سبق أن اتخذت إجراءات أخرى من قبل، ووضعت الجزائر خارج القانون الجمهوري التقليدي : لقد عمل إدغار فور (Edgar Faure) ، في 1955 ، على التصويت على"حالة الطوارىء". لقد تحصل غي مولي ,(Guy Mollet) ، في 1956، من الجمعية الوطنية، بما فيهم أعضائها الشيوعيين (ربما قليلي الحماس لكنهم متمسكون نوعا ما بوحدة اليسار)، "على الصلاحيات الخاصة."

غير أن القرار الذي وقع عليه في ذلك اليوم, الوالي سارج بارات (Serge Barat)بأمر من الوزير لاكوست، كان سابقة كبيرة:

"المادة الأولى: إن مجموع صلاحيات الشرطة، المخولة عادة للسلطة المدنية- بإستثناء الصلاحيات الخاصة -تخول للسلطة العسكرية."

المادة الثانية: يكلف الجنرال ماسو ، قائد الفرقة العاشرة للمضليين (10e DP)بتنفيذ هذا القرار".

انطلق ماسو في العمل على الفور؛ في العمل الدنيء، مع كل أركان قيادته؛ هذه القيادة التي ستلحق بقيادة أركان موازية، تسند للجنرال اوساريس، (Aussaresses) ، الذي كان برتبة رائد حينئذ.

.

1- Yves Courriere, la guerre d'Algerie, T II: les fils de la Toussaint, Paris, Fayard, 1968, p453.

هذا الأخير الذي يلقبه إيف كوريار "بالرائدO" واصفا إياه بـ- "الدهاء والخجل الشديدين وبعدم الإستقرار، وهولا يمت إلى العسكرية بشيء. فالرائد "0 " متخصص في الإستعلامات. فهو رجل صعب التعريف: رابط الجأش، شجاع، "منتفخ"، مولع بالنصر، مع أنه عكس القائد العسكري تماما." [1] يتمتع هذا المحارب القديم لفرنسا الحرة بذاكرة قوية ولا شيء يثنيه"، وضع هذا الأخير يده على بطاقية للشرطة تنطوي على مئات من المشبوهين. في ليلة 14 جانفي، اقتحم المظليون سكنات القصبة المكتظة بالسكان، واعتقلوا 1500 شخص. لقد أوشكوا أن يلقوا القبض على بعض القادة الرئيسيين ل"ج-ت-و": العربي بن مهيدي، ياسف سعدي، وعلى لابوانت على وجه الخصوص.

لم يبدأ استعمال التعذيب مع معركة الجزائر، فكما رأينا كانت ممارسة التعذيب ممارسة عريقة في القدم، تضاعفت بفعل التمرد، (Insurrection) [2]غير أن الذي حدث في الجزائر، في 1957 والذي لا يستثني ما يحدث في أماكن أخرى، ولا أشكال أخرى من العنف- يشكل حالة خاصة.

إن مظليي الفرقة العاشرة لم يعملوا منفردين في مدينة الجزائر، لقد كانوا مدعمين بالشرطة والعساكر المحليين.(Zouaves).

1-إيف كوريار, المرجع السابق الذكر, الجزء الثاني ص 458

2- الشيء الذي أحدث إحتجاجات كل من كلود بوردي، أحد كبار المقاومين، في"فرانس أبسرفاتور"، منذ 13 جانفي1955 ،ثم، في يوم 15جانفي من نفس الشهر، فرانسوا مورياك في "الإكسبريس"، ورئيس أساقفة مدينة الجزائر،دوفال، (Mgr Duval)) في

يوم 17، وهو شخص من الصعب وصفه "بالتقدمي"، مثلما هو الشأن بالنسبة لعدة مسيحيين مناوئين للتعذيب، إلا أنه كان جد حريص على العدل.(...)
(Cf. Jean Vaujour, De la révolte à la révolution, Paris, Albin Michel, P360)

إلا أن المظليين قاموا بالعمل الأكبر. إن تكتيك هؤلاء العساكر في حرب عادية يتعارض تماما مع تكتيك الوحدات الأخرى. فبإنزالهم ضمن فرق الكوماندوس، أو ضمن وحدات صغيرة، يقومون باحتلال النقاط الإستراتيجية على الخصوص، دون التمكن، أحيانا من الإتصال بالقيادة أو الوحدات المجاورة. إن حرب المظليين-هذه الحرب التي يستمدون منها هؤلاء عظمتهم- هي حرب إنفرادية أو تكاد. خلال حرب الجزائر، مارس المظليون نفس الطريقة: طريقة الجماعات المستقلة ذاتيا. لا سيما وأن هذه الجماعات الصغيرة كانت تشكل في ذات الوقت الشرطة الوقائية، السلطة القضائية والقمعية. فكل عسكري، مهما كان، سواء كان حاملا للرتبة أم لا، يمكنه العمل على إيقاف كل شخص أوروبي أو مسلم والزج به-ليس في السجن- لكن في محل معزول-[1] لحمله على "الكلام"، دون جبر هذا العسكري على إبلاغ الساطات العليا لمدة عدة أيام على الأقل.

كان من المستحيل إذن على عائلات "المشبوهين"معرفة المكان الذي يحتجز فيه ذووهم. كانت هناك تعليمة "توصي بالسرية"وقعت من قبل الجنرال ماسو في 4 أفريل1957، وهي تأمر، من جهة أخرى، بالصمت المطبق عن العدد، وطبيعة الأشخاص المعتقلين

1-بعض البنايات اكتسبت حينئذ شهرة مشبوهة: فيلة سوزيني (Villa Susini) و عدة بنايات بحي الأبيار، مركز العبور والفرز (CTT)المقامة بضواحي مدينة الجزائر ومحلات ال."DST"

لقد شاهدت بنفسي مثل هذه الحالات، وهكذا فإن عينا من أعيان القبائل، من تيزي وزو، الذي تناولت الغذاء معه، قد اعتقل خلال الظهر. وبما أنني اعتبرت نفسي معنيا بهذه القضية،حاولت الإتصال بباريس، بأعضاء ديوان وزارة العدل، الذين كنت أعرفهم قليلا. لقد حاولوا التدخل غير أن عسكريي الجزائر سخروا منهم.

لم"يظهر" الرجل إلا بعد ثلاثة أسابيع فيما بعد ليطلق سراحه عقب بضعة أيام. لقد كان الحظ معه، إن صح التعبير، رغم تعذيبه لأن معظم المشبوهين كان يجرى تعذيبهم. إن شكل التعذيب السائد كان، كما هو معروف، يتمثل في التعذيب بالكهرباء، (gégène) حيث أن مرور التيار الكهربائي بالجسد يحدث إضطرابا في القلب وكأنه يمزق العضلات.

كما استعمل الماء كثيرا حيث كان يغطس رأس المعتقل في حوض المطبخ أو الحمام عدة مرات، حتى وشك الإختناق. يملأ البطن والرئتان بالماء البارد عن طريق أنبوب يوضع بالفم؛ تدخل بالأدبار أنابيب قوية الضغط، فتمزق الأمعاء؛ كما تدخل زجاجات بفروج النساء.كان يسلط شتى العذاب على نساء أو رجال يعلقون مسبقا بالعوارض، من القدمين أو من القدمين واليدين معا. لقد حدث أسوأ من ذلك. إن من بين المشبوهين المستنطقين من لا يصبر على العذاب.

صحيح أن طبيبا عسكريا، على الأقل، أجرى بحوثا سلمت سرا إلى المتخصصين لمعرفة إلى أي مدى يمكن تسليط العذاب دون التسبب في موت الشخص المستنطق.

صحيح كذلك أن موظفا سياميا، السيد روجي ويلوم (Roger Wuillaume) قد إلتقط نفس المعلومات لدى أطباء آخرين إذا اعتمدنا تقريرا جد مفيد وجّهه هذا الأخير، في1955، إلى جاك سوستال. لقد كان يميل السيد ويلوم إلى تقبل "الطرق التي تستخدم الماء والكهرباء، لأن استخدامها بحذر، كما يقال، يحدث صدمة نفسانية أكثر منها جسمانية ولا تشكل بالتالي قساوة مفرطة...وحسب رأي بعض الأطباء الذي بلغني فإن طريقة الأنبوب المائي، إذ استخدمت كما أشير إليها أعلاه، لاتشكل أي خطر يذكر على صحة الضحية. وذلك عكس الطريقة الكهربائية التي قد تكون خطيرة لو استخدمت ضد شخص تعرض قلبه لإصابة ما...أميل إلى الإعتقاد أن هذه الطرق قد تكون مقبولة، وإذا ما استخدمت استخداما محكما، كما وصفت لي، فهي ليست أكثر قسوة من الحرمان من الطعام و الشراب والتدخين. هذا الحرمان الذي كان مقبولا على الدوام..."

كان ذلك رأي بعض الأطباء الذين أغفلت أسماؤهم بالطبع وكذا رأي موظف فرنسي سام كانت له، على الأقل، الشجاعة على ذكر اسمه.

إذا كان هذا الرأي مؤسسا، فلا بد من الإعتراف بأن العديد من الإستنطاقات كانت أشد عنفا، لأنها تسببت في عدة وفيات. لقد كان ضباط الصف التابعين للرائد أوساريس، يمرون يوميا، بأماكن الإستنطاق لجمع المحتضرين وجثث الموتى. لقد كان هؤلاء الضباط يجهزون على الأوائل بالمسدس

أو الخنجر. لقد تم دفن بعضهم، غير أننا قليلا ما سمعنا باكتشاف مقابر جماعية من طرف السلطات الجزائرية غداة الإستقلال.

البعض الآخر سبكوا في خرسانة مختلف البنايات (حرصا منها على مكافحة التخلف، وضعت السلطات الفرنسية برامج للتعمير. حيث كان تشييد البنايات يتم بصفة حثيثة بما فيها الثكنات العسكرية التي تشيد على قواعد من الإسمنت).

يبدو أن أغلب "المفقودين" يكون قد قذف بهم في البحر من الطائرات المروحية حيث ربطت بأرجلهم "باربنة" (Parpaing) أو كتلة من الخرسانة المسلحة. إن العدد3000 مفقود هو الذي كثر تداوله في (مدينة) الجزائر منذ صائفة1957. لقد تكلم البعض عن 4000 بل عن 5000 مفقود. إن أشهر هؤلاء المفقودين، على الأقل، لاسيما بسبب المشاعر التي حركها، كان الأستاذ الشيوعي موريس أودين. (Maurice Audin) .

لقد فاجأني حينئذ أمر، بل أذهلني: إن السكان المتضررين من هذه التجاوزات لم يتجرأوا، في حالات عدة، على التظلم، خوفا من أن ينقلب هذا التظلم ضدهم. لقد قص علي أحد الأعيان الأوروبيين قصة أسرة مسلمة كان يعرفها والتي اختفت ابنتها، منذ عدة أيام. لقد عرض عليها هذا الأخير التدخل لدى السلطات من أجل التعرف على المكان الموجودة به هذه البنت، ولمعرفة ما إذا كانت في قبضة العساكر أم الشرطة، والعمل على تعجيل الإجراءات القضائية. لقد رفض الوالدان، أمام دهشة مخاطبهما، ليبررا سلوكهما أخيرا: لقد خشيا من أن يعرض هذا التدخل ابنتهما أو أولادهما الآخرين للخطر. تلتقي هذه القصة بقصة عين يسر، تلك القرية التي قبض فيها على41

شخصا، كدّسوا في قبور فماتوا مختنقين. إن لجنة حماية الحقـــوق والحريـــات الفردية التي أنشأتها ححكومة غي موليي (GuyMollet)، مبدئيا، لمحاربة هـــذه التجاوزات، قد أشارت إلى هذه المأساة، إلا أن أحد أعضاءها، الـــذي كـــان حاكما عاما لفرنسا ما وراء البحار، السيد دولافينيات (Delavignette) ، قد عبر عن اندهاشه لعدم صدور فعل علني من طرف السكان. كان يرى أن الخـــوف هو الذي أدخل" البلاد كلها في الصمت" وأردف قائلا:" إنها شهادة على عدم ثقة السكان في الساطات الفرنسية بالمنطقة. هذه السلطات التي وكأنهـــا، هـــي الأخرى، سجينة نظام يعاني من الفساد، أي نظام؟ ذلك النظام حيث تتحـــبط سلطاتنا نفسها في تشابك الصلاحيات، هذا التشابك الذي يجعل، من ضـــمن الإنعكاسات الأخرى، السكان المسلمين لا يعرفون لمن يفوضون أمرهم." [1]

في 1957، في قطر فرنسي يومئذ، أصبح نساء ورجال ممن سبق وأن عانوا من تجاوزات ارتكبت في حقهم من قبل العسكريين أو الشرطة أصـــبحوا إذن لا يتجرأون على اللجوء إلى السلطات الفرنسية لحمايتهم أو تعويضهم عن الضّرر.

لقد كتبت "تعويضهم" لأن العساكر المعنيين كانوا يسرقون كـــذلك. مئات من السيارات يمتلكها جزائريون تم اختلاسها في الشهور الأولى من تلك السنة. كما كانت تختلس النقـــود خـــلال التفتيشـــات شـــبه القانونيـــة أو الإعتقالات: هكذا، ومنذ نوفمبر1956 ، وعلى إثر اعتقال شابين من قبيلة بني مسيرة، بالقرب من روفيغو (حجوط حاليا)، وبعد تـــدمير المشـــتى الـــتي ينحدران منها، تم العثور بســـرعة على جثتيهما، بينما لم يتم العثور على مبلغ

200000 فرنك آنذاك، الذي كان في حوزة أحدهما والمحصل عليه من بيع قطيع تمتلكه العائلة.

1-جريدة لاكروا (La croix)، 9 جانفي 1958

لقد عرفت وذكرت حينئذ حالة عائلة تجرأت على تقديم تظلم للشرطة التي أجابت بأنها ستفتح تحقيقا (لن يؤدي إلى شيئ) وأن الأمر لا يتعلق بعساكر وإنم بلصوص. ربما تعلق الأمر، حسب زعمها - برجال" ج-ت -و" يكونون قد إرتدوا الزي العسكري الفرنسي بالمناسبة.

لكن ما من أحد يمكنه التصور- بمدينة الجزائر أو في غيرها من المدن- أن ترفض عائلة جزائرية فتح الباب، في أية ساعة من الليل أو النهار، لرجال يرتدون الزي العسكري.

لقد قصرت الدولة في احدى مهامها الرئيسية: حماية المواطنين، على الأقل فيما يخص جزء منهم، لم يكونوا من المسلمين. والأسوأ من ذلك أن الدولة هي التي أمرت بالممارسات المجحفة بحقوق الأفراد.

وهكذا فإنه نحو خمسة عشر عونا جلهم من الأوروبيين- كانوا ينتمون إلى المراكز الإجتماعية التي أنشأتها جرمان تييون، (Germaine Tillion) عضو بديوان جاك سوستال، لمكافحة البؤس، اعتقلوا في مارس 1957 ، ليساقوا إلى فيلة سوزيني حيث جرى تعذيب حوالي عشرة منهم أغلبيتهم من النساء الشابات، وكان في عدادهم شاب مسلم يدعى سعيد عيادي فقد إلى الأبد. جل الآخرين تمت تبرئتهم لاحقا من قبل محكمة الجزائر العسكرية، مما يدل على غياب التهم التي كانت وراء اعتقالهم وتعذيبهم.كان الحاكم العام دولافينيات يتكلم كما رأينا، عن نظام.

إنها الكلمة التي استعملها أيضا في رسالة استقالته الموجهة، في 29 مارس 1957، إلى الوزير روبار لاكوست، الأمين العام للولاية والمكلف بالشرطة، بول تيجين . (Paul Teigen) [1] وبصفته مقاوم قديم، كان بول تيجين يؤكد أنه لاحظ في "مراكز الإيواء" لبول كازال وبني مسوس حيث كان يكدس "الخاضعون للإقامة الجبرية"، نظرا لنقص في السجون، لاحظ "الآثار العميقة للتنكيل أو التعذيب، التي كان قد تعرض لها هو نفسه، أربع عشرة سنة من قبل، "في أقبية الشرطة السرية الألمانية (Gestapo).بمدينة نانسي". والذي قال: "إن لم أكن أجهل أنه خلال الإستنطاقات، مات أشخاص تحت التعذيب، فإنني كنت أجهل أنه كانت تجري بفيلة سرزيني استنطاقات مخزية، وذلك باسم بلدي وجيشه من طرف جندي صنف أول ف..، ألماني الأصل مجند في الفوج الأجنبي الأول للمظليين، (1er REP) والذي كان يتجرأ على البوح للمعتقلين، أنه كان ينتقم من الإنتصار الفرنسي في 1945. وبالطبع ليس ثمة ما يدين الجيش الفرنسي والكفاح المستميت الذي يتوجب على هذا الأخير خوضه عبر البلاد وفي مدينة الجزائر، لا سيما ضد الثوار، الإغتيالات، الإرهابيين*، وكل المتواطئين معهم. غير أن كل ذلك يدين تشابك الصلاحيات والتعسف الناتج عنه.

1-رفضت هذه الإستقالة الأولى، لقد طلب لاكوست من تيجين البقاء في منصبه، الشيئ الذي قبل به هذا الأخير- لمدة محددة - آملا تحاشي ما هو أسوأ، أحيانا. النص الكامل لرسالته قام بنشره إيف كوريار، المرجع السابق ، المجلد الثاني، ص515

*يقصد بالإرهابيين في النص الأصلي الفدائيون الذين كانوا يقومون بتنفيذ العمليات الفدائية ضد التواجد الإستعماري الفرنسي بالجزائر (المترجم)

كان تيجين يشير إلى وجود عساكر من أصل ألماني في صفوف اللفيف الأجنبي. كما استخدمت السلطات الحاكمة بالجزائر المسلمين في شكل شرطة موازية تتكون من قدماء إرهابي "ج-ت-و" والذين أطلق عليهم عبارة، "Bleus de chauffe" لإرتدائهم بزات العمل والذين قُلِّبُوا* "retournés" من قبل سجنائهم الذين كانوا سرعان ما يطلقون سراحهم الشيء الذي يشوه سمعتهم نهائيا في أعين رفقائهم القدماء). لقد أقام هؤلاء ، تحت الإكراه أو طمعا في الربح، شبكة من الوشائيين. فكانت لهم قاعات للتعذيب في قلب العاصمة.

لقد أصبح التعذيب، في آخر الأمر، مؤسسا حتى أنه كاد أن يدرس في المدارس لتكوين الإطارات، بسكيكدة (Philippeville) مثلا، بهدف ممارسته بدون سادية (شراسة) ، وبدون ترك آثار ظاهرة [1] ، كما أوحى به، في سنة 1955 ، المفتش العام للإدارة روجي ويلوم ، السابق الذكر. هذا الأخير الذي أضاف أن التعذيب كان يشبه نوعا ما السوق السوداء في حالة النذرة: ما دام أنه لا يمكن منعها، لكونها أصبحت رائجة وناجعة، كان من الأحسن، في نظره تأسيسها من أجل مراقبة أحسن.

لنضع، حاليا، حصيلة سريعة لمعركة الجزائر. لقد بدى الإضراب الذي دعت إليه "ج-ت-و" لأول وهلة، ناجحا، رغم النداءات التي وجهها العسكريون

من خلال المناشر ومكبرات الصوت. غير أنه سرعان ما اقتلعت المدرعات الستائر الحديدية لمحلات المسلمين المغلقة، لتصبح عرضة للنهب، لا سيما من

1- Cf. Bernard Droz et Evelyne Lever, Histoire de la guerre d'Algerie, Paris, Ed, du seuil, P140

* هؤلاء الذين ارتدوا عن جبهة التحرير والتحقوا بالمستعمر (المترجم).

قبل التلاميذ الذين كانوا في عطلة بسبب الإضراب؛ كما تم تهديد التجار بالسجن إن اغلقوا متاجرهم من حديد. كانت الشاحنات تذهب لنقل العمال بالقوة إلى أماكن الشغل. وفي اليوم التالي،جاء دور إضراب التلاميذ.

ففي ثمان واربعين ساعة انتهى الإضراب الذي كان من المنتظر أن يدوم أسبوعا.

إلا أن الإرهابيين لم يتوقفوا. يقال أنه في اليوم الأول من الإضراب، يكون ياسف سعدي قد غير مخبأه حوالي خمسة عشر مرة بينما تحتم الأمر على القادة الرئيسيين مغادرة المدينة، ما عدا ياسف سعدي بالذات، وبن مهيدي الذي اعتقل يوم 23 فيفري، والذي سرعان ما "انتحر"[1]، في شهر مارس كانت شبكات "ج-ت-و" شبه مفككة، ليعاد تشكيلها في بداية الصيف. في فصل الخريف، تختفي هذه الشبكات تماما لكنها ستعود إلى الوجود من جديد. لقد استطاع أن يسجل إيف كوريار فيما بعد:"كل سكان الجزائر الكبرى وبالأحرى سكان القصبة قد عانوا من القمع. كل عائلة تعرض عضو أو عدة أعضاء منها للإعتقال، التعذيب، والقتل أحيانا" [2].

لقد قرأنا فعلا :"كل عائلة". إن بعض الإنتصارات العسكرية تكلف أصحابها ثمنا غاليا .

1-انظر الجنرال أوساريس، المصالح الخاصة، باريس، بيران،2001 ،ص 116.
يؤكد أوساريس، أنه كان يخشى من الصداقة الناشئة بين"بيجار وزعيم "ج-ت-و"، ذلك ما أدى به إلى القيام شخصيا بشنق هذا الأخير.
2- المصدر السابق الذكر، الجزء الثاني، ص 507 .